سُورَةُ عَبَسَ

سورة عبس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ
(٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨)
وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣)
مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (١٦) قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ
(١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ
(٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا (٢٥) ثُمَّ شَقَقۡنَا
ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا (٢٦) فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا (٢٧) وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا (٢٨) وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا (٣٠)
وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا (٣١) مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ (٣٤)
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ (٣٧) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ
(٣٨) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ (٣٩) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠) تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ
ٱلۡفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ [عبس: ١-٤٢].

* تسمية السورة:

١- اسمها الشهير في كتب التفسير والحديث: «سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾»، أو: «سورة ﴿عَبَسَ﴾»[١].

ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» ضمن السور التي لها أكثر من اسم[٢].

٢- غير أنك تجد في المصادر أسماء أخرى للسورة مُقْتَبَسة من بعض مدلولاتها ومضامينها، وقد سُمِّيت: «سورة ابن أم مكتوم»؛ بالنظر إلى سبب النزول، وسماها آخرون: «سورة الأعمى»، وسماها بعضهم: «سورة الصاخَّة»، وذكر العيني لها اسم: «سورة السفرة»... إلى غير ذلك من الأسماء[٣].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٨٩)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٢) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

* عدد آياتها: أربعون آية، وقيل: إحدى وأربعون، وقيل: اثنتان وأربعون[1].

* وقد نزلت بمكة اتفاقًا، ويظهر أنها من أوائل السور المكية؛ لأن عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام[2].

* سبب نزولها:

أما سبب نزول هذه السورة، فهو أن النبي ﷺ كان مشغولًا بدعوة الأكابر من قريش، كعتبة وشيبة ابني ربيعة، فجاءه ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فكان ينادي النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله، علِّمني مما علمك الله. فكأن النبي ﷺ وجد في نفسه عليه، فعبس وتولَّى عنه؛ لأنه مشغول بهؤلاء القوم الذين كان يرجو إسلامهم، وذلك موقف عابر وخاطر طائر، لم يكن له استقرار ولا ثبات.

وهي تربية ربانية تأخذ بالألباب، أن يحدث هذا بسبب موازنة وترجيح نبوي بين المصالح المتعارضة، فينزل عليه الوحي الذي اعتاد أن يكون له مسليًا معزيًا مصبرًا، فإذا به يحمل عتابًا على عبوسه وتولِّيه عن هذا الأعمى، هو مشهد مليء بالدروس.. دروس في الدعوة.. دروس في الصبر.. دروس في التواضع.. دروس في حساب المصالح والمفاسد.

* شخصية ابن أم مكتوم رضي الله عنه:

عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، اسمه: عمرو، أو عبد الله، وعمرو أشهر، وأمه عاتكة، واشتُهِر بهذا اللقب: «ابن أم مكتوم»، وهو قريب لخديجة زوج النبي ﷺ، ومن المسلمين الأوائل.

---

(1) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(2) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٩٩)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

وقد يكون النبي ﷺ وَكَله إلى ما عنده من الدين والسابقة، وهذا الرجل تاريخه طويل مشرِّف، حتى إنه كان من أول المهاجرين -بعد مصعب بن عُمير رضي الله عنه- إلى المدينة، ولما جاء- كما يقول البراء رضي الله عنه-: سأله أهلُ المدينة: ما فعلَ أصحابُك الذين مِن بعدك؟ قال: هم أولاء على أثري، سيأتون من بعدي.

قيل: إنه استُشهِد في معركة القادسية، رضي الله عنه[1].

* ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس:١]:

أي: كلح وقطب وتجهَّم وجهه، والمقصود: النبي ﷺ قطعًا من دون شك.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرض ببدنه.

فالعبوس يكون بالوجه، والتولِّي يكون بالبدن.

عاتب اللهُ رسولَه ﷺ على لمحة العبوس التي ظهرت في تقاسيم الوجه، ولم يقع منه ﷺ غير هذين الأمرين؛ العبوس والتولِّي عن الأعمى.

ذلك لأن مقام النبوة عظيم، لا ينبغي أن يكون فيه مثل هذا، وفيه دليل على التفات الإسلام منذ أيامه الأولى إلى الفقراء والضعفاء والمساكين، ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «أشرافُ الناسِ يتَّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم»[2].

وقد وقع للإمام الرازي -صاحب «التفسير الكبير»- زلة في تفسير هذه السورة، فذكر أن ما فعله ابن أم مكتوم كان معصية؛ لأنه أتى النبي ﷺ يسأله وهو مشغول بدعوة كبراء قريش، وإن ما فعله النبي ﷺ كان سائغًا أن يفعله.

ثم حاول بهذا أن ينفك من الإشكال، فذكر أن الله تعالى عاتب النبي ﷺ، إما

---

(١) ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١١٩٩)، و«تهذيب الكمال» (٢٢/ ٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٦٤-٣٦٥)، و«الإصابة» (٧/ ٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنه.

لأنه التفت لهؤلاء بحكم القرابة، أو أنه أعرض عن ابن أم مكتوم بحكم العمى[1].

وهذا تأويل رديء، وهو افتعال لمشكلة لا لزوم لها في الآيات، فإن العتاب واضح مصدره وسببه.

والأقرب أن أساس العتاب من الله سبحانه للرسول ﷺ هو زيادة الحرص منه ﷺ على هداية هؤلاء القوم الذي حمله على الإعراض عن الأعمى والعبوس في وجهه.

والإنسان كلما علا قَدْره، وزادت منزلته، كان العتب عليه يَرِد في أصغر الصغائر؛ لأنه محل الكمال والجلال.

وكان دافعه ﷺ شدة الحرص على هداية القوم، وتوقُّع الخير الكثير من وراء إسلامهم، وعادة ما يترتب على مثل هذا أن يكون الداعية منهمكًا منشغلًا، فربما أرجأ أمر الأَتْباع الموثوقين أو وَكَلَهم إلى ما عندهم من الإيمان.

ومَن مارس الدعوة أو التعليم يقع له ذلك كثيرًا؛ فالإنسان العادي إذا أفرط في الانشغال، أو تكاثفت عليه الأعمال، وملأت خاطره؛ فإنه لا يكون مع زوجته ومع أهله ومَن حوله على حال الانسجام والرضا والطواعية، وربما علاه شيءٌ من التوتر والانفعال.

وفي هذا تأكيد على القاعدة الشرعية المعروفة التي هي: «عدم ترك الأمر المعلوم للأمر الموهوم»، يعني: المصلحة المُحَقَّقة لا تُتْرَك لمصلحة متوقَّعة، وكذلك الأمور المؤكَّدة لا تُترَك لما هو أقل تأكيدًا منها، والمصلحة العظمى لا تُترَك للمصلحة الصغرى.

ويتحصَّل من مثل هذا الموقف دروس عديدة وفوائد كثيرة، منها:

١- العناية بالمقبِل أكثر من المُعرِض؛ لأن له سابقة ومبادرة، والإعراض عنه

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٢-٥٣).

ربما يفضي إلى صدوده أو انتكاسه.

٢- دعوة المسلمين مقدَّمة على دعوة الكفار.

صحيح أننا مؤتمنون أن ندعو الناس كلهم إلى الإسلام، ونقيم الحجة عليهم: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، لكن -من حيث الترتيب فقط- أيهما أولى: دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم والتفقه فيه، أم دعوة الكفار إلى الدخول في الإسلام؟

الذي يظهر لي أن دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم أولى وأهمُّ، وهذا لا يعني أبدًا التقليل من أهمية وجود مَن يتخصَّصون في دعوة الكفار، وإقامة الحجة عليهم.

٣- دعوة المهتدين وتعليمهم في الجملة أولى من دعوة المنحرفين الضالِّين البعيدين، وهذا لا يعني التقصير في دعوة المفرِّطين، فيجب أن يكون في المسلمين مَن يتخصص بدعوة الشاردين والمبتعدين وأسرى الشهوات والشبهات، حتى ولو تخصَّص أناس في هذا لم يكن كثيرًا، ولكن في مقام المقارنة الصرفة، نقول: توجيه المهتدين والمقبِلين على الخير في مجالس العلم والذكر أولى من ذلك، وهذا من حيث المفاضلة العامَّة، ولا يعني ذلك الإزراء بحق أحد من هؤلاء.

ربما تكون هذه المقارنات موهمة، أو تستخدم في غير سياقها، وإنما أردت التفصيل في حال وجود شخص واحد - على سبيل المثال- متردِّد بين هذا وهذا، ولا يمكنه التوفيق بينها، لا وقته ولا جهده يسمح بذلك، فلا بد له من اختيار أحد الطريقين، فالأفضل له كقاعدة عامة دعوة المسلمين، ودعوة المقبلين بصفة أخص.

٤- تحديد ما بوسع الإنسان أن يفعله، والمقصود بذلك الواقعية في أمر الدعوة؛ وهذا يوجب تحديد الأهداف ووضوحها وواقعيتها.

من الشباب مَن يفكر في واقع الأمة ومشكلاتها، ويغرق في هذا إلى درجة تعميه عن الحلول الممكنة وعما بوسعه أن يعمله من الأعمال المستطاعة التي تخفِّف المعاناة

ولو جزئيًّا.

عليك أن تفكِّر في الأشياء المقدورة، وبدلًا من أن تقول: متى يتغير واقع الأمة. قل: ماذا عليَّ أن أعمل؟ كيف أستطيع أن أستثمر طاقاتي ومواهبي؟ يمكنك أن تتعلَّم أو تُعلِّم، أو تكون خطيبًا ناجحًا، أو كاتبًا، أو شاعرًا، أو أديبًا، أو داعيةً، أو إداريًّا موفَّقًا، أو أستاذًا أو مُبدِعًا...

* ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس:٢]:

هذا شروع في بيان السبب المباشر، وإلا لم يكن النبي ﷺ عبس بسبب الأعمى فحسب، فهو صاحبه وحبيبه قطعًا، وله سابقته وإسلامه، ووصف الله تعالى الرجل القادم بالأعمى، ولم يذكر اسمه، بل ذكر عاهة مكروهة عند بعض الناس.

وهنا تساؤل: لماذا وصف الله عبد الله ابن أم مكتوم بالأعمى، وليس بوصفٍ آخر؟

كان هذا لبيان عذر الرجل، وأنه لم يكن يرى المشهد ولم يلحظ انهماك النبي ﷺ في دعوة أولئك الملأ، وهو مزيد عتاب للنبي ﷺ، وكأنه يقول: الرجل معذور بالعمى؛ والعمى سبب للتخفيف فيما هو فوق ذلك.

ربما يظن ظان أن الإسلام وهو في بداية ظهوره لن يفيد من رجل أعمى كإفادته من الرجل البصير القوي كامل الحواس، ولذا جاء العتاب مُعْلَنًا يُتلى في آيات محكمات في كتاب مقدَّس إلى يوم القيامة، ولو أراد الله لجعله عتابًا يُسِرُّ به جبريل إلى النبي ﷺ من غير أن يعلم بذلك أحد، ولكنه أراد أن يكون قرآنًا متلوًّا تعلمه الأمة قاطبة؛ ليكون درسًا لها كلها أن الإيمان والتقوى إذا أشرقت في قلب فقد تحقق بذلك المقصود الأعظم من الرسالة، أيًّا كان هذا القلب، وأن مصالح الدنيا وحساباتها يجب أن تتأخر في هذا المقام ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢١].

وفي هذه الآيات دلالة على أن القرآن وحي الله، بلَّغه الرسولُ ﷺ إلى الأمة كما تلقَّاه، لم يُخفِ منه شيئًا، ولم يزِد فيه، ولو كان من تأليف النبي ﷺ لما كانت فيه مثل هذه الآيات.

هذا العتاب لم يأتِ من أحد من البشر، بل من رب العالمين، والمسلم متعبَّد بحفظ هذه الآيات وتلاوتها وتعليمها للناس، كما هو متعبَّد بأن يحفظ ويتلو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وكلا الأمرين فيه حرج؛ فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فيه مدح وتزكية مما يحمل الخصوم على أن يتهموه بأنه تقوَّل القرآن؛ لما فيه من تزكية نفسه.

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ فيه حرج من جهة المؤاخذة على هذا الموقف وكشف ما لابسه من كراهية نفسية لما جرى، ولكنه حرج أذهبه تبشير ربه له بأنه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر.

وهنا النبوة والصدق في التبليغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، يعني: لو كتمت آية أو لفظًا أو حرفًا لم تكن مبلِّغًا لرسالة الله عز وجل، تقول عائشة رضي الله عنها: «لو كان محمدٌ ﷺ كاتمًا شيئًا مما أُنْزِل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]»[1].

وهذا عتاب أعظم وأبلغ في شأن زواجه ﷺ بزينب، وكشفٌ عن شيء كان يخفيه في نفسه، والله تعالى يقرِّر إبداءه وإعلاءه ليسمعه التابع الموافق والكافر واليهودي والمنافق.. ليسمعوا جميعًا خطاب الله العظيم لمصطفاه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (١٧٧).

وهو شيء عظيم حقًّا، ولو أن أبًا عاتب ابنه، أو قائدًا عاتب متبوعه بمثل هذا، لكان حريصًا على تجاوز الموقف ونسيانه وكتمانه أو التشكيك فيه.. فكيف والخطاب من رب العالمين من فوق سبع سماوات، وفي ظروف وأحوال صعبة ومخاطر محدقة!

وقد جاء الخطاب في قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ بضمير الغائب، مع أن النبي ﷺ هو المخاطَب به، وفي عتاب الله إياه في سورة الأحزاب جاء العتاب بخطاب مباشر: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وفي هذا أسرار لطيفة، يظهر منها:

١- عدم مفاجأة النبي ﷺ بالخطاب والعتاب؛ لأن مخاطبة الغائب أولى من مخاطبته في البداية وجهًا لوجه، وهذا يدل على أن البداية هذه أخفُّ وألطف مما لو قال له: (عبست وتوليت) ففي العتاب تدرج وترقٍّ، بدأ بمخاطبة الغائب: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ [عبس:٣]، وعلى هذا يكون الأمر أخف.

٢- أن هذا العبوس والتولِّي أخفُّ من أن يُوصف بالذنب، وإنما هو خلاف الأولى، ومع ذلك عاتبه فيه ربه؛ لأنه ليس من مألوف أخلاق النبي الكريم ﷺ، فجاء الخطاب بصيغة الغائب للإشارة إلى أن ذلك الحدث كان استثناء بالقياس لأخلاق النبي ﷺ.

٣- التعبير بالغَيبة يجعل المعنِي به كأنه يراه واقعًا من غيره، وهذا أبلغ في تصوير المشهد وملاحظة ما فيه من مخالفة ما هو الأولى في حقه.

٤- جاء الخطاب بالغَيبة متسقًا مع فعل النبي ﷺ مع عبد الله ابن أم مكتوم، فهو ﷺ قد أعرض عنه وتولَّى، فجاء الخطاب فيه شيء من الإعراض في المخاطبة المباشرة إلى خطاب الغَيبة، ولكنه لم يدُم طويلًا، ولذا جاء بعد هاتين الآيتين خطاب مباشر

للرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٣]، فهو عتاب المحب لحبيبه ﷺ، وهو دليل على عظمته ﷺ، وقوة احتماله، ورباطة جأشه، كما أنه دليل على أهمية المراجعة والتصحيح، وأن قوة الإنسان وكماله ليست بالادِّعاء، ولا بالشهرة، ولا بالاسم، ولا بالنسب، وإنما هي بدأب الإنسان وصبره ومواصلته في تطلُّب الكمال وتدارك العثار.

* ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٣]:

يحتمل أن تكون الآية استفهامًا؛ يعني: ما يدريك لعل هذا الرجل الذي أعرضت عنه، ولم تُجِبْه، لعله يتزكى. و«لعل» من الله واجبة.

وفي الآية ثناء على عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، بأنه من المتزكِّين الأوائل، شهد له بذلك ربه جل وعلا، والنبي ﷺ عندما أعرض عنه إعراضة خفيفة وهو منشغل بما يظن أنه أهم، ترتَّب عليه أن الله تعالى من فوق سبع سماوات يُنزل شهادة لعبد الله ابن أم مكتوم في وحي يُتلى أنه ﴿ يَزَّكَّىٰ ﴾، فهذه بركة سيدنا محمد ﷺ، كما قال في الحديث في آخر عمره، قال ﷺ: **«اللهمَّ إني اتخذتُ عندك عهدًا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن سببتُه أو جلدتُه، فاجعلْ ذلك كفارةً له يومَ القيامةِ»**[1].

فكان من بركة ذلك العبوس أن تنزل تزكية الرجل من السماء، وأن يخلِّد الله ذكره والثناء عليه في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى أنه وإن كان أعمى البصر، فهو مُبصِر بقلبه، ولذلك سيتزكَّى ويذكَّر.

* والفرق بين قوله: ﴿ يَزَّكَّىٰ ﴾، و﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [عبس:٤]:

أن الأول ﴿ يَزَّكَّىٰ ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة من البر والمعروف والخير

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والصلاة والذكر والتقوى والإيمان وكل عمل صالح.

أما قوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ فقد تكون إشارة إلى الانزجار عن الذنوب والمعاصي، وهذان هما الركنان الأساسيان للرسالة: فعل الطاعة وترك المعصية، فعل المعروف وترك المنكر، وقد أجمع العلماء على أن الرسل كلهم بُعِثوا بأمرين:

١- تحصيل المصلحة.

٢- دفع المفسدة.

فكل ما أمر الله تعالى به فهو مصالح ينبغي تحصيلها، وكل ما نهى الله تعالى عنه فهي مفاسد ينبغي دفعها وإبعادها قَدْرَ المستطاع.

ولذلك انتفع الناس بهذا التعليم الرباني، فكان النبي ﷺ شديد القرب من أصحابه الضعفاء والفقراء ويرحب بهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨].

وفعل هذا أصحابه من بعده، والأئمة والعلماء، حتى قيل: إن الفقراء في مجلس سفيان الثوري كانوا كالملوك في تكريمهم واحترامهم، وتوقيرهم وتقديرهم، والإقبال عليهم[١].

هذه هي النبوة، ليست مُلْكًا ولا سلطانًا، ولا فخرًا ولا رياءً، وإنما تواضعًا لله واهتمامًا بالناس وبضعفائهم، ولا يعني هذا قصد إهانة الأكابر، فليس هذا مطلوبًا، ولا هو من المروءة، بل يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَه.

ولم يعاتب الله نبيَّه ﷺ على مجرد الإقبال عليهم ودعوتهم، وكان واجبًا عليه أن يدعو الأكابر كما يدعو المستضعفين، وإنما العتاب في ازدراء الضعفاء والفقراء

(١) ينظر: «الجرح والتعديل» (١/ ٩٧)، و«المجالسة» (٧/ ٧٧) (٢٩٥١)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٥)، و«تاريخ الإسلام» (١٠/ ٢٣٠).

والإعراض عن دعوتهم.

* وهنا لم ينتهِ العتاب، بل قال سبحانه: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴾ [عبس:٥]:

أي: عن الحق وقبوله، وهذا هو ما يُذمون به، لا أن يكونوا كبراء وسادةً وأغنياء في قومهم، فالغنى في ذاته ليس بمذموم، كما أن الفقر في ذاته ليس بممدوح.

* ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ [عبس:٦]:

﴿ تَصَدَّىٰ ﴾ معناها: تَصْدُد، وأُبدلت الدال الثانية حرف علة؛ «تصدَّى»، يعني: تصَدَّد إليه، أي: تلتفت وتتوجَّه إليه وتدعوه، وحاشاه ﷺ أن يكون طامعًا في أموالهم أو جاههم، وإنما كان يطمع في إسلامهم؛ لأن بإسلامهم يسلم أتباعهم، وهو دليل على شدة حرص النبي ﷺ على هداية الناس حتى المعرِضين منهم.

* ﴿ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٧]:

أي: إذا قمت بالواجب وبلَّغته الدعوة ثم لم يُقبل فليس عليك من وزره شيء: ﴿ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام:٥٢].. ليس عليك تبعته بعد أن أقمت الحجة، وأديت واجب البلاغ.

* ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴾ [عبس:٨-٩]:

وهذه شهادة أخرى لعبد الله ابن أم مكتوم بأنه يخشى الله، وهي من بركة النبي ﷺ، فلولا هذا العتاب لربما لم يتلُ في القرآن هذه التزكية العظيمة.

* ﴿ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس:١٠]:

ولكن بأي شيء تلهَّى عنه رسولُ الله ﷺ؟ كان يتلهَّى بدعوة الأكابر، فهو قد صدَّ عن دعوة إلى دعوة أخرى، ومع ذلك يعاتبه ربه في ذلك، فيتلقن الدرس ﷺ، وهذه هي العظمة والنبوة، وبمثل هذا وغيره صار النبي ﷺ سيد الأنبياء، وإمام المرسلين، فلا يُفتح باب الجنة لأحد قبله، وكانت أُمَّتُه خير الأمم، وأتباعه

خير الأتباع، وأصحابه خير الأصحاب، وهديه خير الهدي، وسيرته أفضل السير، فيؤدِّب الله سبحانه نبيَّه ﷺ بمثل هذا التأديب الرباني الواضح المُعْلَن الذي يُتلَى إلى يوم القيامة.

* ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس:١١]:

﴿كَلَّآ﴾: كلمة زجر وردع. يعني: لا تَعُدْ لمثل هذا.

١- وهذا درس للعلماء والدعاة والأفراد والجماعات في استيعاب الناس والتواصل معهم، بعيدًا عن حسابات الغنى والفقر والذكاء والنبوغ أو الضعف، فدعوة الإيمان والتزكية والطهارة لا يجوز أن تكون مربوطة بمصالح فئوية أو حزبية أو مكاسب عاجلة، بل هي فوق ذلك.

٢- ودرس في ضرورة قبول النقد والتصحيح والمراجعة، وأن لا يصرَّ الناس على تكرار تجارب فاشلة أو خاطئة، لمجرد أنها مألوفة أو متلقاة عن الشيوخ والقادة.

٣- ودرس للحكام: فهذا سيدهم محمد ﷺ يتلقى من ربه العتاب والتأديب، ويعلنه على الناس، ولم ينقص هذا من قَدْرِه؛ بلِ زاده رفعة وعظمة، فلِمَ يظنون أن نقد فعل فعلوه أو قول نطقوه أو سياسة جروا عليها هو ازدراء لهم أو بخس بحقهم؟

٤- وهي درس لعامة الناس وخاصتهم في التوازن، وعدم الانخراط في قراءة المصالح المادية البحتة، فالجانب الإنساني والأخلاقي هو من أهم المصالح وأولاها بالاعتبار.

٥- ودرس في قبول النقد والتدرب عليه وعدم التبرُّم منه، أو اعتقاد أن النقد يدمِّر الإنسان، بل الواقع يقول: أهميتك بقدر النقد الموجَّه إليك، فلا تقلق من النقد، والناس دائمًا يختلفون حول الأشياء المهمة والأشخاص المهمِّين والقضايا المهمَّة، أما مَن لا حضور لهم ولا تأثير، فهم يخطئون ويصيبون ويتنقلون ولا أحد يكترث لهم!

ولستَ بناجٍ من مَقَالـــةِ طاعـــنٍ ولو كنتَ في غـارٍ على جبلٍ وَعْـرِ
ومَن ذا الذي ينجو من الناسِ سالمًا ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ[1]

نَمْ قرير العين، وتأكَّد أن النقد جرعات تطعيم تقوِّي شخصيتك، وتشد أزرك، وامضِ بثقة وجرأة، ودَعِ الناس ينقدونك كيف شاؤوا، وعليك الاستماع له، والإفادة بما فيه من الحق، وإن وجدتَ شيئًا غير مقنع فارفضه ولا تبال به، ولا تقل: هذا حاسد، أو حاقد، أو شانئ، أو مُغرِض، أو مدفوع. فلا يصح في نهاية المطاف إلا الصحيح.

على أن النقدَ يجب أن يكونَ بأسلوبٍ عادلٍ صادقٍ راقٍ لَيِّنٍ، يقول عيسى عليه السلام: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، بل انظروا في أعمالكم كأنكم عبيد»[2].

يجب أن تكون متواضعًا بعيدًا عن التعالي، وعليك أن لا تجزم بصوابك فيما ليس فيه نص، ولو جزمت بصوابك فعليك أن تراعي الحكمة والموعظة الحسنة، والرفق واللين مع مَن تختلف معهم.

والضمير في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ضمير المؤنث، وفي سورة أخرى جاء مذكرًا: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤]، والمعنى واحد.

ويحتمل أن يكون المراد به السورة كاملة، أو الموعظة التي في هذا السياق، يعني: هذا الجزء من السورة الذي عُوتب به النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون القرآن كله.

* ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كأن ربنا سبحانه وتعالى يقول للنبي ﷺ: هؤلاء الناس الذين أعرضوا ولم يقبلوا منك ليس عليك من حسابهم شيء، فهذا القرآن إنما هو تذكرة وعظة:

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٤٠).
وخافيتي النسر: هي الريش الصغار التي في جناحه، واحدتُها: خَافِيَةٌ.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٨٦)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٥)، وابن أبي شيبة (٣١٨٧٩، ٣٤٢٣٠)، وأحمد في «الزهد» (٣١١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٨، ٣٢٨).

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس:١٢].. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، فلا تحزن عليهم، ولا تقلق من إعراضهم، فقد أدّيت ما عليك، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

* ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس:١٣-١٤]:

﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾؛ لأنها من الكريم سبحانه، وتنـزَّل بها جبريل عليه السلام وهو مَلَك كريم: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢٠-٢١]، على نبيٍّ كريم وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

وهي ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ أذن الله بتطهيرها ورِفْعتها، وأن لا يمسَّها إلا المطهَّرون، ومطهَّرة من الخطأ واللغو والباطل، وكل رجس معنوي.

* ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٥-١٦]:

يعني: هي موضوعة ومحمولة بأيدي سفرة، و«السَّفَرَة»: جمع سافِر، وقد يكون من السِّفْر، وهو الكتاب، والسافر هو الكاتب.

ومنها: السفير الذي ينتقل بين فريقين للإصلاح.

قال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد وردت صفتهم في الإنجيل بالقديسين.

وقال قتادة: هم القرّاء. ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وقال أكثر أهل العلم -كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره-: إن السفرة الكرام البررة هم الملائكة(١).

---

(١) ينظر: «مسند الدارمي» (٣٤١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٤)، (٢٤/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١١٨-١١٩).

وقد يشهد له حديث عائشة رضي الله عنها: «الماهرُ بالقرآنِ مع السَّفرةِ الكرامِ البَررةِ، والذي يقرأُ القرآنَ ويتتعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران»(١).

وبكل حال ففيه إشارة إلى الثناء على أصحاب محمد ﷺ؛ لأنهم حملة القرآن وحُفَّاظه، والثناء على قُرَّاء القرآن عبر العصور؛ فهم فهموه وعملوا بما يقتضيه.

وهو توكيد لحفظ الله تعالى لكتابه بتسخير السفرة الكرام البررة المعنيين بحفظه في السماء والأرض، خلافًا لأباطيل السَّحرة والمكذِّبين التي تطير بها الشياطين، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

* ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]:

هذا سياق جديد، فيه الانتقال من مشهد إلى آخر، وعلاقة هذا الموضوع بما قبله تتبيَّن مما يأتي:

١- إذا كان أولئك النفر: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والأخنس بن شَرِيق، وغيرهم من المستكبرين قد رفضوا دعوة النبي ﷺ، وتصدَّى النبي ﷺ لدعوتهم يوم جاءه عبدالله ابن أم مكتوم، فإن هذه الآيات تتضمن التوعُّد والدعاء عليهم، والدعاء من الله تعالى واجب؛ لأن الله تعالى بيده الأمر.

وهي إشارة إلى أن أولئك النفر ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون، والله أعلم.

٢- السياق يقرِّر أن مهمة الرسل هي تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، وأنه لا عذر لمَن بلغته الدعوة أن يتولَّى ويكفر، ولذا حقَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وإن كان صيغته صيغة الدعاء، إلا أن حقيقتها توبيخ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

للإنسان وزجر وتأنيب له، وأنه مستحق للموت ما دام أنه ليس في قلبه إيمان ولا حياة، فالموت أجدر به.

* ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس:١٨-٢٢]:

وهو تدرج إلى المجادلة معهم وإقامة الحجة عليهم.

وهؤلاء القوم المتحدَّث عنهم موصوفون بصفتين: الكفر، والكِبْر والتعالي عن قبول الحق.

فأقام الله عليهم الحجة فيما يتعلق بـ«الكفر» بالآيات، وأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بـ«الكبر» بتذكيرهم بأصل الخلق، الذي خُلقوا منه، ولهذا جاء السياق بعد ذلك مباشرة: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، فهذه الخلقة لا تهيئ الإنسان أن يتكبَّر أو يتعاظم.

على أن هناك خلافًا في المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ .. ﴾ فكثير من المفسرين يرون أن المقصود شخص بعينه، مثل عتبة، أو شيبة، أو الأخنس، أو عتبة بن أبي لهب... وهذا احتمال، ولكن السياق عام في جنس الإنسان، كما يُشعر بذلك قوله: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾؛ ولهذا ذهب آخرون إلى أن المقصود بالإنسان هنا: الجنس[1].

وهنا إيراد يحتاج إلى كشف، وهو أن المعهود في القرآن أن الله تعالى يرفع الإنسان ويكرِّمه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠]، فما معنى أن يأتي الآن السياق ليقول: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾، وأن يشير إلى هوان أصله ومهانته؟

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/ ٢١٩)، (٣١/ ٥٨)، و«اللباب في علم الكتاب» (١٢/ ٧٥)، (٢٠/ ١٦٠)، و«نظم الدرر» (٢١/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٠).

والجواب: أننا إذا قلنا: إن المقصود «جنس الإنسان» فلا يعني ذلك الناس كلهم؛ لأن جنس الإنسان: فيهم الأنبياء، والعلماء، والصلحاء والدعاة... إلخ.

وإنما المقصود الإشارة لغالب الناس، ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣].

ولا يلزم أن يكون المراد بالكفر الجحود والكفر الأكبر، وإنما يشمل هذا، ويشمل ما دونه من الكبائر التي لا تُخرِج من الملة، ولذلك فسَّرها الرازي والسعدي وغيرهما بأن المقصود هو كفر النعمة، أي: جحودها[(١)]. وفيه تناسب مع السياق حيث عدَّد نعمه على الإنسان بعد هذه الآية.

وكأن المقصود جنس الإنسان الكافر، وهذا المعنى محتمل وجيه.

وقوله: ﴿ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾ يحتمل معنيين:

١- أي: ما أشدَّ كفره وعناده كما تقول: ما أشد بياض هذا الشيء أو سواده.

ويكفي في شدة كفر الإنسان: إعراضه عن عبادة ربه سبحانه، مع أنه الذي أسبغ عليه نعمه وعرَّفه بآياته وصفاته وأظهر له عظمته وكبرياءه، ثم يذهب يعبد صنمًا.. أو حجرًا.. أو بقرة.. فلا شك أن هذا جدير بأن يوصف بشدة الكفر ويتعجب منه[(٢)]!

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجحدُه الجاحدُ
ولله في كـلِّ تحريكـةٍ ... وفي كلِّ تسكينةٍ شاهـدُ
وفي كـلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ ... تدلُّ على أنه الواحـدُ

٢- أن يكون قوله: ﴿ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾ استفهام، أي: ما الذي جعله يكفر؟ وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦]، أي: ما الشيء الذي

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير السعدي» (ص ٩١١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٤/ ٤٠)، و«تفسير المراغي» (٣٠/ ٤٤)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

جعلك تكفر بالله عز وجل؟ وهذا مروي عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء، ولكن حقيقته تشنيع وتقبيح لما يعمله الإنسان، وهو إن كان تأنيبًا، إلا أن المؤمن يستشعر فيه الحلم الرباني؛ لأن الله تعالى وهو يُعجِّب من فعل الإنسان، ويبيِّن استحقاقه للقتل واللعن، يصبر عليه ويحلم، ولا يعاجله بالعقاب: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: **«ما أحدٌ أصبر على أذًى يسمعُه من الله تعالى؛ إنهم يجعلون له ندًّا ويجعلون له ولدًا، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم»**[2].

وفي الأثر: «إني والإنسُ والجنُّ في نبأٍ عظيمٍ! أخلقُ ويُعبَدُ غيري، وأرزقُ ويُشكَرُ غيري»[3]. وفي الأثر أيضًا: «يا ابنَ آدمَ، خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعدُ إليَّ!»[4].

ولو كان الأمر في يد واحد من أحلم البشر وأصبرهم لأباد كلَّ مَن يخالفه في الدين، أو في الرأي أو المَشْرب، وعاجلهم بالأخذ، وكان الشاعر أبو القاسم الشَّابي يقول:

أَيُّها الشَّعْبُ ليتني كنتُ حطَّابًا ... فأهوي على الجذوعِ بفأسي

ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سالتْ ... تَهُدُّ القبورَ رمسًا برمسِ

ليتني كنتُ كالرِّياحِ فأطوي ... كلَّ ما يخنقُ الزُّهورَ بنحسي[5]

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٦٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٣٧١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٧٧)، (٤/ ٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨٩).

(٥) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص١١٧).

* ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [عبس:١٨]:

هنا سؤال عن مادة الخلق، متجاوزًا السؤال عن الخالق والمخلوق، فذلك شيء معلوم مُسلَّم به، فليس ثَمَّ أحد يقول: إنه غير مخلوق، حتى فرعون وهامان والنمرود وأبو جهل يعترفون بأنهم مخلوقون، والله سبحانه وتعالى ينقلهم من الأمر المعروف المتفق عليه إلى سؤال آخر وهو: «من أي شيء خُلقتم؟»، كما في الآية الأخرى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، فهذه تُلامِس ضميرَ الإنسان وتحرِّكه: أنت مخلوق .. ومخلوق من ماذا؟

هل ادَّعى أحد أنه خالق يخلق كخلق الله؟

في قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨]، هل كان النمرود يقصد أنه يحيي الموتى؟ كلا، وإنما يقصد أنه يأتي برجل مستحق للقتل فيعفو عنه، فذلك إحياؤه إياه، ويأتي بآخر لا يستحق القتل فيقتله، وهو نوع من التلاعب بالألفاظ والعبارات.

* أما الخالق الذي يُوجِد من عدم، ويحوِّل الجماد الهامد الرميم إلى حيٍّ متحرك، عاقل متكلِّم، واعٍ فاهم، فهو واحد لا شريك له، وهو الذي يخاطب الإنسان ويقول: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس:١٩]، والنطفة هنا هي الشيء اليسير من ماء الرجل الذي خُلِق منه الإنسان[1]، فهل يتكبَّر وقد خُلِق من نطفة ضعيفة ليس لها قوام ولا وجود؟

والدفقة من المني فيها الملايين من الحيوانات المنوية، والإنسان مخلوق من حيوان

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٣٩).

منوي واحد من هذه الملايين، وهي مؤهَّلة من حيث الإمكان المجرَّد أن يُخلَق منها الملايين، لكن الله تعالى بحكمته يختار حيوانًا واحدًا منها، فيسبق غيره ويخترق البويضة ويتكوَّن منه الإنسان.

فلماذا يتكبَّر وهذه حقيقته؟! وكيف ينسى ربَّه، ويجحد فضله، وهو الذي رعاه منذ كان نطفة في رحم أمه حتى صار رجلًا بالغًا راشدًا؟

وفي السؤال تنشيط للعقل ولفت للأنظار، وهو أسلوب مجدٍ مع مَن كفرُهم كفرُ جهالةٍ لا كفر عناد وجحود.

﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ الفاء تدل على التعقيب، يعني: بعد الخلق جاء التقدير مباشرة.

ولقوله: ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، ثلاثة معانٍ، وكلها صحيحة:

١- قدَّر أعضاءه، فجعل له عينين ولسانًا وشفتين، ولو اختلَّ فيه شيء من أعضائه لظهر فيه النقص والعجز والتشوه.

٢- ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، يعني: في الأطوار التي يمرُّ بها؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم يكون إنسانًا سويًّا خلقًا آخر، ثم طفلًا، ثم فتى، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم هرمًا، وهي مراحل وتحولات في غاية الانسجام والانضباط، والحكمة والإبداع: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤].

٣- ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي: فسوَّاه.. في اعتدال قامته.. وسلامة أعضائه.. في جماله، حيث جعله في أحسن تقويم، وميَّزه عن الحيوانات والوحوش وغيرها[1].

* ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ [عبس:٢٠]:

﴿ ثُمَّ ﴾ تدل على التراخي؛ لأن فيه فاصلًا، والضمير في: ﴿ يَسَّرَهُۥ ﴾ عائد على

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

﴿ٱلسَّبِيلَ﴾، معناه: ثم يسَّر ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾، وهذا الذي يسمِّيه النحويون الاشتغال، أي: ثم الله تعالى يسَّر السَّبيل، فالسَّبيل: مفعول به منصوب وهو الذي وقع عليه التيسير.

و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ له معانٍ:

١- هو مَخْرَج الجنين من رحم الأم. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة، ورجَّحه الطبري[(١)].

ولذا يقال في نواقض الوضوء: الخارج من السَّبيلين.

والمقصود أن الله تعالى يسَّر للإنسان السَّبيل للخروج من رحم الأم، وهذا له ارتباط بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس:١٩]، وهو معنى جيد، وفيه إشارة إلى صبر الأم على خروج الجنين، فإنها تعاني كثيرًا، من حمله تسعة أشهر في رحمها، ثم المعاناة الأشد في الولادة وآلام الطَّلْق التي تشبه الموت.

إن خروج الإنسان من هذا المضيق وبهذه الطريقة آية وعبرة يجب أن لا ينساها، كما يجب أَلَّا ينسى فضل الأم التي حملته وعانت، وقبله فضل الرب الذي يسَّر له السَّبيل.

٢- أن يكون المقصود بالسَّبيل: طريق الخير والشر، الهدى أو الضلال، ولهذا شاهد في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، وهذا قول مجاهد، واختاره الإمام ابن كثير[(٢)].

٣- يسَّر له معرفة المنافع والمضار، فإن الإنسان بطبعه حتى وإن كان طفلًا صغيرًا، يعرف شيئًا من مصالحه، يعرف كيف يرضع من لبن الأم، ثم كيف يتجنب الأشياء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٠-١١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٢-١١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٣).

الحارة، وكيف يتجنَّب المخاطر، وإذا عقَلَ بدأ يفكِّر في مصالحه التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، فهذا من تيسير الله تعالى.

والأقرب أن هذه المعاني الثلاثة كلها مقصودة.

* ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ [عبس:٢١]:

وهذا انتقال إلى مرحلة أخرى بعد مرحلة الجنين وبعد مرحلة الحياة الدنيا كما كان: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨].

وقال: ﴿ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾، ولم يقل: (فقبره)؛ لأن الذي يباشر دفنه في القبر هو إنسان مثله، وأما الله تعالى فهو يسخِّر له ويهيِّئ له القبر، كما قال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وقد علَّم الله الإنسان كيف يحفر الأرض ويدفن فيها الموتى، كما في قصة ابني آدم: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة:٣١].

وجعل الله تعالى من طبيعة الأرض ما يسهِّل ذلك، حتى إن بعض البلاد الصخرية أو الجزر يكون وجود المقبرة فيها من أصعب الأمور.

فالله تعالى «يُقبِر» بضم الياء، والإنسان «يَقبُر» بفتحها، قال الأعشى:

لو أَسْنَدَتْ ميتًا إلى صدرِها قام ولم يُنْقَلْ إلى قابـرِ
حتى يقولَ النـاسُ لما رأوا يا عجبًا للميتِ الناشرِ[1]

والقابر هو الذي يتولَّى القبر.

دلَّت الآية على أن الله تعالى شرع للمسلمين أن يدفنوا موتاهم، فيجب أن يحفروا لهم القبور وأن يدفنوهم، وبعض الأمم الأخرى، كالفرس وبعض الهنود كانوا يحرقون الأموات، ثم يرمون رمادهم في الأنهار أو الصوامع، ومنهم مَن يترك الموتى

(١) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٣٩-١٤١).

لجوارح الطير والسباع، وهذا كان موجودًا عند العرب، لا سيما إذا ماتوا في المعارك؛ لأنهم يفتخرون بذلك، حتى يقول الشَّنْفَرَى:

وَلا تَقبُروني إِنَّ دَفني مُحَرَّمٌ عَلَيكُم وَلَكِن أَبشِري أُمَّ عامِرِ[1]

وأم عامر، هي: الضبعة؛ لأن الضبعة تأكل أجساد الموتى، وكان الفراعنة يقبرون عظماءهم في أبنية ومقابر عظيمة، ومنها الأهرامات المعروفة، واشتُهِروا بتحنيط الموتى، في حين أن الإسلام شرع لنا أن يُحْفَر للإنسان قبرٌ ويُدْفَن فيه، حتى لما مات النبي ﷺ قالت فاطمة رضي الله عنها: «يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟».[2] فهذه سنة الله تعالى في عباده.

* ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس:٢٢]:

أي: إذا شاء الله تعالى بعثه، وهذا انتقال من المعلوم للمجهول، ومن المتفق عليه إلى محل الجدل والإقناع مع هؤلاء المعاندين المُعْرِضين، المكذِّبين بالبعث.

وإيراد الحرف ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى أن البعث يأتي بعد زمان طويل مقرَّر في علم الله، وهم كانوا يستعجلونه ويقولون: ما رأينا أحدًا بُعِثَ بعد موته. فكان قوله: ﴿إِذَا شَآءَ﴾، تعليقًا للنشور بإرادة الله وأنه لا يستجيب لاستعجالهم.

ولو أن الناس كانوا يُبْعَثون على دفعات في هذه الحياة، لما كان ثَمَّةَ حكمة في الابتلاء بالإيمان، فاستبطاؤهم لا معنى له.

* ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس:٢٣]:

الأكثرون على أن معناها: إن الإنسان لم يؤدِّ ما عليه من حقِّ الله كاملًا، و«لمَّا» و«لَمْ» معناهما متقارب، ولكن «لمَّا» تفيد احتمال الحدوث في المستقبل القريب،

---

(١) ينظر: «البرصان والعرجان» للجاحظ (ص ٢٥٢)، و«جمهرة الأمثال» (٢/ ٣٠٥)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

تقول: هممت ولمَّا. يعني: لم أفعل بعد، وربما أفعل قريبًا، أو قاربت الفعل.

يقول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يقضي أحد أبدًا كلَّ ما افتُرض عليه»(١).

ومن المناسب لهذا المعنى قوله ﷺ: «لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني الله منه بفضلٍ ورحمةٍ»(٢).

والعبد مهما اجتهد، لن يؤدِّي شكر نعمة الله تعالى عليه.

ويدخل في هذا: أن الإنسان لم يتدبَّر حقَّ التدبُّر، ولم يتفكر حقَّ التفكُّر، ولو تفكَّر في ملكوت السماوات والأرض، ونظر في نفسه؛ لأبصر آيات الله عز وجل، يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل:

إلهي رأيتُك.. إلهي سمعتُك..

رأيتُك في كلِّ شيء..

سمعتُك في كلِّ حيّ..

تعاليَت لم يبدُ شيءٌ لعيني..

تباركتَ لم ينبُ صوتٌ بأذني..

ولكنَّ طيفًا بقلبي يطل..

ومِن طيفِه كلُّ نورٍ يهل..

لقد رأى آيات الله، التي جعلته يعبده كأنه يراه، أو يحاول.

فالسبب في كفر الكافر: أنه لم يتدبَّر، ولو تدبَّر لعرف من أي شيء خُلق، وعرف ما أمر به.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٠٦٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذا المعنى مناسب لما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ [عبس:٢٤]، أي: فليتدبَّر إذًا بالنظر إلى طعامه.

وفي الآية معنى آخر محتمل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم أجد للمتقدمين فيه كلامًا سوى هذا». أي: أن الإنسان لم يؤد ما أوجب الله تعالى عليه.

ثم قال: «والذي يقع لي في معنى ذلك والله أعلم، أن المعنى: ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القَدَر من بني آدم ممن كتب الله له أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونًا وقَدَرًا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم»[1].

وكأنه جواب لما يُثار من تساؤل: لماذا لم يُبْعَث الآن الأقدمون؟ فكان الجواب: لو شاء الله لأنشر الإنسان الآن، ولكن لم يشأ ذلك؛ لأن الإنسان: ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ أي: لم ينته ما أمر الله به قضاءً وقدرًا من خلق الناس، فقد أذن الله أن تأتي أجيال بعد أجيال، وأمم وقرون، حتى ينتهي الأمر، ويأذن الله تعالى بالبعث.

وهو معنى لطيف، وابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن كان مفسِّرًا سلفيًّا إلا أنه لم يجد غضاضة أن يبتكر معنى للآية جميلًا صحيحًا، وتدل عليه نصوص أخرى، ولم يسبقه إليه أحد فيما يعلم.

وقد يظن بعض الناس أن الإتيان بالمعاني اللطيفة الجديدة والأسرار من الآيات خطأ، وليس الأمر كذلك، بل الأمر كما قال علماء السلوك: كما أن القرآن نزل على النبي ﷺ منجَّمًا، فكذلك قرّاء القرآن تأتيهم أسرار القرآن ومعانيه منجَّمة، فكلما قرأ الإنسان تجدَّد له معنى لم يلحظه من قبل.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

وقد نقل الرازي عن ابن فُورَك الأستاذ معنًى في الآية مختلفًا أيضًا، وهو أن الله تعالى لم يقضِ لهذا الإنسان الكافر ما أمره به من الإيمان، يعني: كلا لن يؤمن هذا الكافر؛ لأن الله لم يرد له أن يؤمن، ولم يقضِ له الإيمان، فالله أمره بالإيمان لكن لم يقضِه له(1).

وهذا المعنى صحيحٌ في ذاته، فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام:١٠٧]، ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١١١]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

لكن السياق لا يساعد؛ لأنه يبدو وكأنه يعطي الكافر العذر في كفره إذ لم يُقضَ له ذلك.

* ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس:٢٤]:

انتقل السياق للحديث عن آيات الله في الآفاق، وهذا كثير: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣].. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢١-٢٢]، فبعدما ذكر تعالى خلق الإنسان، انتقل إلى نوع آخر من الحجج والآيات الدالة على وحدانية الله سبحانه، ومن النعم والفضائل والكرامات التي أكرم الله بها الإنسان، فوجب على العبد أن يحمد ويشكر، ودعا إلى التأمُّل في شيء محسوس قريب تشتد الحاجة إليه وهو الطعام.

* ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ هو نظر واسع:

١- نظرةَ إيمانٍ واعتبار؛ لأن الإنسان إذا نظر في هذه المخلوقات النظرة قادته إلى الإيمان بخالقه سبحانه، وإدراك حكمته في الخلق ورحمته وكرمه وأسمائه الحسنى.

٢- نظرةَ امتنانٍ وشكر؛ لأنه إذا نظر إلى هذا الطعام شكر مَن أعطاه إياه.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٦).

* ثم انتقل بعد الإجمال إلى التفصيل: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ [عبس:٢٥]، وجمهور القرّاء يقرؤونها بكسر الهمزة: (إنا صببنا الماء صبًّا) فيكون هذا على سبيل الاستئناف، وأما قراءة عاصم فهي بالفتح: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾[1]، وهذا ما يسمِّيه النحويون: بدل الاشتمال.

والرابط بين قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ وبين الطعام رابط ظاهر، والصبُّ: عادة يكون من الأعلى إلى الأسفل، والمقصود بالماء هنا: المطر.

و﴿صَبًّا﴾ مفعول مطلق، وهو دليل على قوة الصَّبِّ، والله تعالى تولَّى هذا الأمر بنفسه وذاته، كما توحي الآية.

وفي الآية صورة تخيلية، فكأنك ترى الأمطار تهطل بغزارة، تجتاز تلك المسافة بسرعة، فتستجيب الأرض، وتتشقَّق بالنبات، حتى إنك ترى الأرض يابسة هامدة شهباء: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

* ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس:٢٦]:

جاء التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى النواميس الإلهية في هذه الحياة، فالنبات لا ينبت إلا بالماء بإذن الله، والأرض تحيا بالنبات، وبعضه مترتِّب على بعض، ترتيب النتيجة على السبب، ولو شاء الله لأنبت الزرع وأحيا الأرض بغير نزول المطر، ولكنها سنته.

وإشارة إلى الفاصل الزمني بعد نزول المطر وقبل خروج النبات، وهو يوضِّح معنى الآية في سورة الحج ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٧٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٨)، و«حجة القراءات» (ص ٧٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٣١١).

مُخۡضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣] أنه لا يعني النبات الفوري.

* وقد ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ [عبس:٢٧-٣١]:

ذكر «الحَبَّ»، وهو كل ما يُحصَد مثل القمح والبر والحنطة والشعير والأرز، وهي غالبًا ما تكون قوتًا للإنسان.

ثم «العنب»، وهو فاكهة معروفة، وهو مفيد للهضم، فإذا جُفِّف سُمِّي زَبيبًا، وكان العرب يجفِّفونه ويجعلونه قوتًا يأكلونه في غير موسمه، وله منافع كثيرة للبدن، وهو أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه؛ العنب والرُّطب والتين، كما قال ابن القيم[(١)].

و«القَضْبُ» هو القَتُّ أو العلف، ويُسمَّى قديمًا الفصفصة، وهو ما تأكله الحيوانات، وبعض أهل العلم يقولون: إن القتَّ هو ما يُحْصَد مرة بعد أخرى، فكلَ ما يُحْصَد ثم ينبت مرة أخرى يسمى القضب أو القت.

و«الزيتون» معروف، وزيته نافع، وقد ذكره تعالى في مواضع من القرآن، وسمَّى الله تعالى بلاد الشام بلاد التين والزيتون بالبلاد المباركة.

و«النخل» معروف، ولم يقل: (زيتونًا وتمرًا)، وذلك لأمور:

١- أن ثمرة النخل تتشكَّل على أنواع، فتبدأ بُسرًا، ثم رُطبًا، ثم تمرًا.

٢- أن النخل لا تنحصر الإفادة منه في جني ثمرته، وإنما يُنتفَع من أجزائه كلها، حتى لا يكاد يُرمى منه شيء.

و«الحديقة» هي البستان، والغالب أن الحديقة تُطلَق على الأشجار الملتفَّة الكثيرة المحيط بعضها ببعض، ففيها ثمار وجمال في منظرها، يقول مجاهد في قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ

---

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٣٣٩-٣٤١).

﴿غُلْبًا﴾ أي: أشجارًا ملتفة. لكن أكثر أهل التفسير على أن ﴿غُلْبًا﴾: جمع أغلب، ويطلق على الأشياء المتينة[1].

و«الفاكهة» معلومة، أما «الأَبُّ» فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هو الكلأ أو ما تنبت الأرض من الحشيش أو المرعى، وهي ألفاظ متقاربة. وسُمِّي «الأَبُّ» بذلك؛ لأن الناس يأبُّونه، أي: يؤمُّونه[2].

وذكر الطبري في «تفسيره» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، فقال عمر رضي الله عنه: «قد عرفنا الفاكهة، فما الأَبُّ؟! ثم أقبل رضي الله عنه على نفسه وقال: لعمرك يا ابن الخطاب، إن هذا لهو التكلُّف»[3].

وسُئل أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عن هذه الآية بخصوصها؟ فقال: «أيُّ سماءٍ تظلُّني، وأيُّ أرضٍ تقلُّني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟!»[4].

فهنا تجد الصِّدِّيق والفاروق وقفا عند «الأَبِّ» ولم يحدِّداه.

وابن عباس رضي الله عنهما حَبْر الأمة وترجمان القرآن عرَّفه، ونقله عنه مجاهد، كما سلف.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب بدء الخلق (٤/ ١٠٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٢)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٩٦)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٤٩٠)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤٢١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٣).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٢٧)، وسعيد بن منصور (٤٣-تفسير)، وابن أبي شيبة (٣٠١٠٥)، والطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٥٩). وينظر: «الدر المنثور» (٨/ ٤٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٠٧)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٢٧)، وينظر: «تفسير سعيد بن منصور» (٣٩)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤٢١).

وأما توقُّف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند «الأبِّ» وعدم تحديده فله احتمالان:

١- أن تكون هذه الكلمة من الكلمات التي جاءت في القرآن، وليست على لغة قريش.

٢- أن يكونا قد عرفا «الأَبَّ»، لكن لأنه لفظ مشترك يُطلَق على أكثر من شيء فقد تردَّدا في تعيينه، هل المقصود بالآية المرعى والكلأ، أم المقصود به نبات آخر غيره؟

وهذا درس ينبغي أن تتفطن له، في عدم التكلف والتنقير والهجوم على المشتبهات دون علم، خاصة وأن السياق مفهوم، وهو في مقام تعداد النعم والامتنان بها على الخلق وشكرها، وليس أمرًا تعبديًّا ولا يتعلق بخصوصه تكليف من زكاة أو غيرها حتى يتوجب على المكلَّفين معرفته.

وتوقف الشيخين في تحديد معناه لم يمنع غيرهما من البيان؛ لأن المفردة من العلم قد توجد عند المفضول وتخفى على الفاضل.

وفي الآية إشارة إلى أن هذه النعم يشترك فيها الإنسان والحيوان، ولذا ذكر ما يخص الإنسان كالفاكهة، وما يخص الحيوان كالعلف، وما يشتركان فيه كالحب، مما يوجب الحذر أن يكون الأكل والتمتع هو قصارى ما يسعى إليه العقلاء.

يا خادمَ الجسمِ كم تشقى بخدمتِــه ... لتطلبَ الربحَ فيما فيه خسرانُ

أقبِلْ على النفسِ فاستكملْ فضائلَها ... فأنت بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ﴾ [محمد:١٢]، والذين آمنوا ألَا يتمتعون ويأكلون؟

بلى، ولكن الذين كفروا: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾، أما المؤمن فإنه يأكل باسم الله، وينتهي بحمد الله: «إن اللهَ ليرضى عن العبدِ يأكلُ الأَكْلَةَ فيحمدُه

عليها، أو يشربُ الشَّربةَ فيحمدُه عليها»[1]. ويتزوَّد ويتقوَّى بها على الطاعة.

* ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات:٣٢]:

وهذا يؤكِّد المعنى السابق، فهذه المذكورات بعضها للناس وبعضها للأنعام: ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [يونس:٢٤]. وكأن المعنى: كلوا وتمتعوا، وتذكَّروا أن هذا الأمر في حدِّ ذاته لا يرفع قيمة الإنسان، فليست قيمته بما يأكل أو يلبس، أو يملك، وإنما هي بأمر فوق ذلك بكثير.

وهي تلميح من طرف خفي إلى أن على الإنسان أن يبحث عن الكمال الإنساني، وأن يترفَّع عن مشابهة البهائم والأنعام التي لا هَمَّ لها إلا الأكل والشرب، ومع تمتعه بما أحل الله له عليه أن يفعل ذلك بطريقة شرعية مستحضرًا اسم الله وحمده، والتزام أحكامه، ومعرفة حقوق الجائع والمسكين وابن السبيل.

وأن يتذكَّر ألوانًا من النعم التي شُرِّف بها الإنسان وكُرِّم دون الحيوان، وهي نعمة العقل والتكليف والمعرفة والعبادة التي هي من أعظم أنواع المتعة: «أرحنا بها يا بلال»[2]. والآيات تحفيز للإنسان أن يلتفت إلى كل ذلك.

وفي هذا السياق من الآيات:

١- دعوة إلى التوحيد والاعتراف بالخالق الرازق تبارك وتعالى.

٢- دعوة إلى شكر الخالق الرازق، فالله تعالى حقيق بأن يُشْكر ويُحْمَد عليها.

٣- دلالة على البعث؛ وهذه الأرض التي كانت هامدة ثم شقَّها الله تعالى بالنبات كثيرًا ما تأتي في القرآن إشارة إلى البعث، وتنبيهًا إلى أن البعث يحاكي ما يقع في الأرض من خروج النبات.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨، ٢٣١٥٤)، وأبو داود (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، والطبراني (٦٢١٥) من حديث رجل من الأنصار رضي الله عنه.

* ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ [عبس:٣٣]:

بما أن الآيات السابقة تضمنت دعوة إلى التأمل والتوحيد والإيمان، ناسب أن يأتي بعدها تأكيد البعث، وهو نقل للمشهد من الدنيا إلى يوم النشور، و«إذا» كما هو معروف أداة شرط.

وقد ذكر الشيخ ابن عاشور(١) أن جواب الشرط قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ [عبس:٣٨]، وهذا عندي بعيد، والأقرب أن الجواب قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عبس:٣٤]، وكأنه قال: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾، فذلك: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾، و﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار:١٩].

و﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ هي: الصيحة، وهي من أسماء القيامة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(٢)، وقد أُطْلِق يوم القيامة في القرآن حتى صار عَلَمًا عليه، وهو يوم النفخة.

و﴿ الصَّاخَّةُ ﴾: الصوت الذي يصخُّ الأسماع، وقد يكون معناه: تصيخ له الأسماع، وقد يقال: فلان يصيخ، يعني: ينصت للصوت، وهذا رأي الطبري والزمخشري وجماعة، أنه مأخوذ من الإصاخة، تقول: أَصِخْ، يعني: أنصت واستمع.

وذهب آخرون إلى أن: ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ هي الصوت القوي الذي يصخُّ أو يصمُّ الأسماعَ بقوته(٣)، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالأمر قريب.

* والمعنى: فإذا جاءت القيامة بصوتها المجلجل القوي فذلك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس:٣٤-٣٦]، وورود التسلسل بهذه الصيغة فيه انتقال من القريب إلى الأقرب، فأخوه قريب، وأقرب منه أمه وأبوه، وأقرب منهما

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٧).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٢٤).

(٣) ينظر: «أساس البلاغة» (ص خ خ) (١/ ٥٣٩)، و«لسان العرب» (ص خ خ) (٣/ ٣٣)، و«تاج العروس» (ص خ خ) (٧/ ٢٩٠).

زوجته وبنوه، في حين أن في سورة المعارج كان التسلسل من الأقرب إلى الأبعد، حيث يقول تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج:١١-١٣].

وسبب فرار الإنسان من أقرب الناس إليه:

١- أنه مشغول بما يهمُّه، حتى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقول أحدهم: «**نفسي نفسي**»(١).

٢- يفرُّ منهم -كما قال قتادة- خشية المطالبة؛ لأن هؤلاء بحكم المخالطة والقرابة يكون بينهم حقوق، ولهذا قال قتادة: يفرُّ قابيل من هابيل(٢)؛ لأنه سوف يُمْسِك به ويقول: يا رب، سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ وهكذا كل قاتلٍ يُسأَل يوم القيامة: لماذا قَتَل؟

ذلك أنه إذا اشتد الخوف والقلق أصبح الإنسان يهتمُّ بنفسه أكثر مما يهتمُّ بزوجه أو ولده أو والده أو أخيه أو قرابته، ، ثم إن النتيجة المحصلة ليست أمرًا سهلًا يمكن أن يتحمله أحد عن أحد، أو يؤثر فيه مَن يحب ويعظِّم، فهي نهاية المطاف وخاتمة المسعى، والجنة أبدًا أو النار أبدًا.

وعبر بـ: ﴿مِنْ﴾، ولم يقل: (عن أخيه)؛ لأن سبب الفرار هو الأخ فيفرُّ منه بالذات؛ لأنه مشغول عنه، أو لأنه يخشى أن يطالبه، فسبب الفرار هو الأخ نفسه، أما لو قال: (عن أخيه)، فمعناه: أن يكون الإنسان في معركة مثلًا وفَرَّ عن أخيه، أو عن زوجه، دون أن يقصدهم بالفرار.

* ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]:

لكل إنسان منهم شأن.. يشغله عما سواه، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) كما في حديث الشفاعة. أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٥)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥١).

«يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حفاةً عُراةً غرلًا[1]». فقالت عائشة: يا رسولَ الله، النساءُ والرجالُ جميعًا، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال ﷺ: «يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ»[2].

الخطب عظيم وأمامهم من الأهوال والكروب ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض، ليس هذا الموقف بضع دقائق أو ساعات أو أيامًا، بل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨-٣٩]:

بدأ بالفريق الأول؛ لأن السورة نزلت في شأن عبد الله ابن أم مكتوم من جهة، وحثَّ النبيَّ ﷺ على الاهتمام بالمؤمنين ولو كانوا من الضعفاء والمساكين والمستضعفين، وعاتب الله تعالى نبيَّه بشأن هؤلاء الكفار الذين استظهرنا فيما سبق من الآيات أنهم ممن كتب الله عليهم الشقاء، وعلم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وسجَّل عليهم ذلك، فكان الأنسب أن يبدأ بالمؤمنين؛ ليبشرهم بحسن مآلهم.

و«الوجه» قد يُراد به وجه الإنسان، وهو يُعبَّر به عنه غالبًا تقول: فلان وجهه طيب. وأنت لا تقصد وجهه بالذات، لكن طِيْب معدنه وخلقه، وهي «مُسْفِرَة»؛ لأنها آمنت بالله عز وجل وصدَّقت المرسلين.

وقوله: ﴿مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾، فالصفات الثلاث كلها مجتمعة فيهم:

١- الإسفار في الوجه، أي: يظهر في الوجه لون الإسفار، وهو نور الإيمان، والتقوى، والصفاء في قلوبهم فاض على وجوههم.

٢- الضحك: والضحك هو فعل الإنسان، وعادة الإنسان أنه لا يضحك إلا في طمأنينة وانشراح، وهو درجة أعلى من الإسفار.

---

(١) أي: غير مختونين.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

٣- الاستبشار: وهي مرحلة ثالثة أعلى منهما، أي: أن في قلوبهم بِشْرًا وفرحًا وابتهاجًا، فهم يرون من هدايا ربهم ولطفه وتحفه وعطاياه ما يطمئنهم ويبشِّرهم، ويستبشرون بالمزيد: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

* ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤٠-٤١]:

وهي في مقابلة الوجوه الأولى، وكُرِّرت كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ لطول الفصل، واستحضارًا للموقف نفسه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦].

وقوله: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: فيها سواد، فهي مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، ذكر وجوه المؤمنين المبيضَّة وفي مقابلها وجوه الكافرين المسودَّة.

ومع سوادها فإنها: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: تغشاها وتحيط بها، و«القترة» هي الظلام والسواد، فالوجوه مسودَّة، ومع سوادها فعليها هالات من السواد والظلمة، وتنتظرها النار المظلمة، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:٢٧].

* ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٤٢]:

«الكفرة» بما في قلوبهم من الجحود والعناد والاستكبار، و«الفجرة» في أعمالهم، وكثيرًا ما يُطلَق الفجور على الأعمال، مثل قوله ﷺ: «إذا خاصم فجر»(١). وغالبًا ما يكون الكافر فاجرًا، وهما صفتان متلازمتان غالبًا، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧].

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فجمعوا بين الكفر والفجور؛ ولهذا جمع الله تعالى لهم بين الصفة الذاتية وهي السواد في وجوههم، وكما أن الفجور يظهر في تصرفاتهم وأعمالهم، جعل الله تعالى القترة تغشاهم وترهقهم وتحيط بهم كإحاطة أعمالهم السيئة الظالمة الفاجرة، كما قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ...﴾ الآية [البقرة:٨٠]، وقال عن النار: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، والله أعلم.

○ ○ ○